

## مشاعر فضائيات

إن أجمل ما فى الحياة القدرة على التعبير عن الذات مهما كانت الوسيلة . وكلما توفرت هذه القدرة على التعبير كلما تطورت الوسيلة فى اداء هذه الرسالة .. ورسالة الانسان ان يعمر الأرض .. وأول أدوات التعبير التواصل فى القول والفعل .. فقد شاهدت الندوة التلفزيونية فى البرنامج المتميز ( نيل يا ليل ) حول حرية التعبير عن المشاعر لدى الجنسين خاصة عند المرأة .. واختلاف وسائل التعبير عنها فى الماضى والحاضر .

وقد استفاد المذيع الناجح (سعد الدين) من تجارب الآخرين حين جمع بين جيلين فى المشاركة ..حتى فى التحقيق الخارجى .. بين الجيل القديم الذى عاش مرارة التجربة والجيل الحديث الذى يتمثل حرارة الواقع المعاش وكان الفارق بين الأثنين جهدا مشتركا ورؤية اضافية فى ردم الفجوة بين الأفكار المطروحة فى الحلقة .. وربط الكل بالجزئيات فى منظومة عقلانية الطرح حتى لا يشطط الصغار ولا يتحجر الكبار .. فكانت سهرة ممتعة .  
وأقول ممتعة لان تلاقى الجيلين حول قضية واحده .. فيه انضباط يخدم أهداف البرنامج .. ويجعل كل طرف يقيس كلماته بمعيار الذهب .. فلا يتشدد فى رأى .. ولا يفرض فى الجنوح عن الواقع ..

ان قضية التعبير عند المرأة حول أى موضوع اجتماعى يجب الا تؤخذ بمعزل عن مشكلة الرجل نفسه .. فمتى كان الرجل يملك تلك الحقوق حتى تطلب منه عطاءها للأخريين رجلا كان أم امرأة .. ان نفس الأمنية هى ضالة الرجل قبل ان تكون مطلب المرأة حتى اليوم وإن كانت فى سياق جديد ..  
اننا لا نستطيع ان ننسلخ من جلد الموروث لانه العنصر الذى يشكل ثوابت حياتنا التى تتعرض لأعاصير الاجتياح وخوفان الاكتساح من كل حذب وصوب ..

لماذا نحاول دائما فى نقاشنا لحقوق المرأة .. أن نجعل الرجل موضوع الأتهام ؟ أو أن نجعل من القضية صراع بقاء بين نقيضين لا بد أن تنتهى بغالب او مغلوب ؟ وفى الواقع ان الاثنين وجهان لعملة واحدة وضحية واقع متخلف متصل بثالوث الفقر والجوع والمرض الذى أقعد البلاد كلها من الحركة فى اى اتجاه .. ان السودان القارة التى يتم اكتشافها الآن وفى هجمة مكثفة وحملة منظمة لم يسبق لها مثيل لم تقفز الى ذهنى المخطط العالمى الاستراتيجى كالنبت الشيطانى ومن فراغ ولكنها كانت أجندة مؤجلة الى أجل محتوم وفى توقيت لم يتم حسب الخيار الإستراتيجى و إنما دفعت به إرادة داخلية ما زال السودان يدفع استحقاقاتها بصبر و مثابرة والا ما كان البترول تحت الأرض عقودا من الزمن يبحث عن من يفتح له ثقباً فى الأرض ليتفجر رغدا ونعمة .. وما بقيت الغابات الاستوائية التى تغطى عيون الشمس فى صحراء جرداء قاحلة تعاني التصحر

والجفاف .. تنتظر من ينقب في فضاء الأوزون والمناخ المدارى .. ليعيد الحديث عن سلة غذاء العالم .. بعد أن نسى الناس السلة وزهد العالم في الغذاء .

لقد عشنا منذ الاستقلال في دورات متتالية من الانقلابات حتى أصابنا الدوار .. وما زلنا نتارج في خطواتنا نحو ظل الاستقرار .. واختلت كل هذه القيم خلال هذه الابتلاءات والتي ما زالت تداعياتها تصب في كل مشروع جديد ..

ان المشاعر التي نتحدث عنها موجودة في وجدان البنات والبنين وعبروا عنها بكل الوسائل في شتى القوالب الغنائية والشعرية ولكن في إيجاز المتفق عليه للرجل والمرأة ولان الحرية ما زالت سلعة غالية الثمن في كل اشكالها و لكل من يبحث عنها في الحب أو السياسة أو الاقتصاد .. والحقوق التي لا تسقط بالتقادم و لا تأتي بالتصادم أكدت ان الاقتصاد عصب السياسة .. وان السياسة تكبل حرية التعبير وفي مقدمة هذه حرية التعبير عن الحب .. الفردي أو الجماعي ..

اننا شاهدنا التلفزيون في الستينات ولكننا عاصرنا السينما منذ ذلك بكثير .. وشاهدنا التعبير عن المشاعر في الافلام السينمائية في بلاد سبقتنا في الحضارة كثيرا ولكن كانت تستعمل الشفرة في الحب .. والخمار في الوجه والقبعة في حجاب الرأس .. ولم يضرها أن تقول انها أمة متقدمة وحضاريه وما زالت جريمة الشرف في الريف المصرى تمثل أكبر التحديات لتقدم المجتمع .. وأبرز المظاهر لتجذر ثقافة الثار في أعماق الموروثات في التربة الصعيدية ..

أذكر استضافه التلفزيون السودانى للشاعر المبدع محمد بشير عتيق في زمن الانتفاضة عام 1985.. قبل رحيله الأليم في برنامج مماثل حول الفن والابداع .. وكانت معه صفوة من الشباب من الأدباء و الشعراء فقال لهم: ( اننى الآن تجاوزت السبعين عاما .. وأشعر اننى اكثر شبابا من كل الجالسين .. وقد دخلت للعلاج في مستشفى العيون بالخرطوم وكانت هنالك خبيبة تشرف على علاجى فكتبت فيها قصيدة .. (الدكتورة) .. وذاع وتفشى الخبر وسمعت الطيبة وجاءت تسألنى : (يا عمى قالوا انت كتبت قصيدة .. هل هى جديدة أم حقيبة ) فقلت لها: (يا بنتى الشعر هو الشعر والجمال هو الجمال والفرق فقط في الزمن ويا حليل زمن الحقيبة .. زمان ما كنا بنشوف البنت ( في سور و داخل سور) ونكتب من الخيال ولكن الآن البنت أنطلقت ونحن انطلقنا وراها) فقالت لى في ذهول : ( يعنى كيف أنطلقت يا عم؟؟ فقال لها: ( معذرة يا دكتور لا أقصد انطلقت بالمعنى الشائع و لكنى أقصد من انطلاقة .. زى (انتفاضة !!) .. فأنفجر الجميع ضاحكين .... وهكذا كان يرى الواقع أحد أكبر شعراء الاغنية السودانية قديما وحديثا .. كيف ربط المفهوم القديم (انطلاقة) بالواقع المعاش (انتفاضة) والقضية واحدة والمعنى في قلب الشاعر و الذى ما زال الشباب يغنى اغانيه .. ولا يخلو برنامج من ذكر اسمه وترديد أغنياته .

فلأن المرأة كانت خلف حجاب .. وما زالت محط الأنظار و ليست رهينة حصار ربما تقسو عليها رحمة بها .. بعضه إيجابى يحمل صفة الرعاية لا الوصاية .. وروح المحبة لا المسبة .. وبعضه سلبى

يدفعه ضعف الرجل المقهور فى العمل .. المهزوم فى الشارع و المتأزم بالداخل.. يفتقد الى الشعور بالأمان فى الوظيفة أو الأمن فى الطريق .. وفاقد الشئ لا يعطيه ..  
ما زال يدور فى أذهان أجيال اليوم جميعا .. صدى دقات ناقوس الخطر .. والخوف على الأرض .. والعرض ..يردد( القابض على الجمر ليس كالقابض على الماء) بينما كان شباب الحى فى الماضى يذهبون الى بيوت الحله .. واحدا واحدا يطرقون البيوت و يدخلونها من أبوابها يستأذنون الأهل لاصطحاب الفتيات الى حفلات العرس .. حتى اذا ما انتهت الحفله فى الهزيع الأخير من الليل عادوا بهن الى بيوتهن عودة آمنة ومودة كامنة من عفة وكبرياء رجالا و نساء ومن منا لا يذكر قول المغنى الذى يقول على لسان بنت تخاخب أحد أبناء الحى فى ختام الحفل :  
يوم خلعت القمره .....  
أخير يا عشانا .. تؤدينا لى اهلنا ....  
بسألوك منا ...!!

ما أروع هذه الصورة العاخرية المليئة بالتعبير عن مشاعر انسانية رقيقة .. من شابه تعرف حدود الحرية لها .. ولغيرها .. وتقدر مصدر الخوف عليها .. وعلى أهلها ..لان حريتها مرتبطة بحرية الأسره .. وأمنها ضرورة لأمان الحى ..و أمانة الأمة ..!!

ولكن عندما .. تتفكك الأسرة .. ويتشردم الحى .. يصبح الأمن الجماعى فى خطر ويصبح البحث عن الأمن الشخصى مسئولية ذاتية للغاية رهينة بالأفراد مطية للاجتهد .. وتصبح المشاعر لغة خاصة خاضعة للتأويل .. فى كل القواميس .. ويكل اللغات فى الزمان والمكان.  
قال الإمام على بن أبى خالب كرم الله وجهه: (الناس بزمانهم أشبه منه بأبائهم) وقال (لا تكرهوا أبناءكم على آثاركم فهم مخلوقون لزمان غير زمانكم)

و فى ظل الحفاظ على الثوابت بعقلانية و رعاية المتغيرات فى حكمة و روية يمكن المزج بين الفضيلتين دون صدام بين الجيلين أو حرب بين الجنسين و تصبح المعادلة الصعبة قابلة للحل .. لا مجرد ترف ذهنى أو لغو عاخرى أو مشاعر فضائيات .

الدكتور الزين عباس عمارة - أبوظبى